ISSN E: 2709-8273
ISSN P:2709-8265
JOURNAL OF APPLIED LINGUISTICS AND TESOL
JALT

بسم الله الرحمن الرحيم

الدخان بين الإثبات والتأويل

دراسة عقدية مقارنة في الفكر الإسلامي بشبه القارة الهندية

AL-DUKHĀN BETWEEN AFFIRMATION AND INTERPRETATION A COMPARATIVE THEOLOGICAL STUDY IN ISLAMIC THOUGHT IN THE INDIAN SUBCONTINENT

الباحث: عامر مدني - أ.د. ذياب مذهل الحربي.

الملخص

تتناول هذه الدراسة مسألة "الدخان" بوصفها نموذجًا كاشفًا للاختلاف المنهجي بين الاتجاه التراثي والاتجاه الحداثي في الفكر الإسلامي بشبه القارة الهندية. اعتمدت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي المقارن، من خلال تحليل نموذج تراثي ممثَّل في النواب صديق حسن خان، ونموذجين حداثيين ممثَّلين في أمين أحسن إصلاحي ووحيد الدين خان.

وتخلص الدراسة إلى أن الاتجاه التراثي يثبت الدخان علامةً كبرى مستقبلية ذات حقيقة كونية عامة، اعتمادًا على ظاهر النصوص وتقديم النقل في مسائل الغيب، بينما يعمد الاتجاه الحداثي إلى تأويله تأويلًا تاريخيًا أو علميًا معاصرًا، مع تقليص البعد الغيبي الاستثنائي. وتبيّن أن جوهر الخلاف ليس في ثبوت النصوص، بل في المنهج المعرفي الحاكم لفهمها.

الكلمات المفتاحية: الدخان، أشراط الساعة، الغيب، المنهج التراثي، المنهج الحداثي.

Abstract

This study examines al-Dukhān (the Smoke) as a case illustrating methodological divergence between traditionalist and modernist trends in Islamic thought in the Indian subcontinent. Using a descriptive–analytical comparative approach, it analyzes the traditionalist position of Nawab Siddiq Hasan Khan alongside the modernist perspectives of Amin Ahsan Islahi and Wahiduddin Khan.

The findings show that the traditionalist approach affirms al-Dukhān as a future major cosmic sign based on a literal reading of the texts and prioritization of transmitted evidence in matters of the unseen. In contrast, the modernist approach reinterprets it through historical or contemporary scientific frameworks. The study concludes that the core disagreement lies in epistemological methodology rather than textual authenticity.

Keywords: Al-Dukhān, signs of the Day of Judgment, ghayb, traditionalist methodology, modernist interpretation.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا ونبينا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين؛ أما بعد:

فإن الإيمان باليوم الآخر أصلٌ عظيم من أصول العقيدة الإسلامية، وركنٌ ركين من أركان الإيمان التي لا يتم إسلام العبد إلا بها. وقد قرن الله تعالى الإيمان به بالإيمان باليوم الآخر في مواضع كثيرة من كتابه الكريم، مما يدل على علو منزلته، وعظيم أثره في بناء التصور الإيماني الصحيح. والإيمان باليوم الآخر يشمل التصديق الجازم بكل ما أخبر الله به ورسوله صلى الله عليه وسلم مما يكون بعد الموت، من أحوال البرزخ، وأشراط الساعة، وأهوال القيامة، والحساب والجزاء.

وتأتي أشراط الساعة في هذا السياق العقدي بوصفها مقدّمات كونية تدل على قرب انقضاء الدنيا، وتُنبِّه المؤمنين إلى الاستعداد للقاء الله تعالى. وقد تنوعت النصوص في بيان هذه العلامات، فمنها ما هو من الأشراط الصغرى التي ظهرت أو ما تزال تظهر، ومنها ما هو من الأشراط الكبرى التي إذا وقعت تغيّر نظام العالم إيذانًا بدنو قيام الساعة. وهذه العلامات ليست أخبارًا تاريخية فحسب، بل هي جزء من الغيب الذي يجب الإيمان به على الوجه الذي جاء في النصوص، من غير إفراط ولا تفريط.

ISSN E: 2709-8273
ISSN P:2709-8265
JOURNAL OF APPLIED LINGUISTICS AND TESOL
JALT

ومن بين الأشراط الكبرى التي ورد ذكرها في القرآن الكريم والسنة النبوية: الدخان، وهو الذي قال الله تعالى فيه: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾[1]. وقد أثارت هذه الآية، وما ورد في السنة من الأحاديث المتعلقة بالدخان، نقاشًا علميًا واسعًا بين العلماء قديمًا وحديثًا، خاصة في تحديد المراد بالدخان: هل هو ما وقع لقريش من القحط حتى كانوا يرون بين السماء والأرض كهيئة الدخان، أم هو دخان حقيقي عام يعم الناس قبيل قيام الساعة، فيكون من الأشراط الكبرى التي لم تقع بعد؟

وإذا كان الخلاف في تفسير الدخان معروفًا في كتب التفسير والحديث عند علماء المشرق والمغرب، فإن لهذا الموضوع خصوصية ظاهرة عند علماء شبه القارة الهندية، الذين كان لهم إسهام علمي متميز في علوم التفسير والحديث والعقيدة، وبرزت بينهم مدارس فكرية متعددة في القرون المتأخرة، وقد عالج هؤلاء العلماء مسألة الدخان ضمن سياق أوسع يتعلق بأشراط الساعة، ومنهج التعامل مع نصوص الغيب، وقواعد الترجيح بين أقوال السلف.

فعلماء شبه القارة الهندية قد تعاملوا مع نصوص أشراط الساعة بعناية بالغة، فصنف بعضهم مصنفات مستقلة في علامات القيامة، وضمنها آخرون في شروحهم للكتب الحديثية الكبرى، كشرحهم لصحيح البخاري وصحيح مسلم، أو في حواشيهم على كتب العقيدة. وقد ظهر في تناولهم لمسألة الدخان تفاعل واضح مع أقوال السلف من الصحابة والتابعين، مع محاولة الجمع بين الروايات، أو الترجيح بينها وفق أصولهم المنهجية. وتركز هذه الدراسة على ثلاثة من أبرز أعلام هذا السياق، وهم: النواب صديق حسن خان، وأمين أحسن إصلاحي، ووحيد الدين خان.

وتزداد أهمية دراسة الدخان عند علماء شبه القارة الهندية من جهة أن هذه المنطقة شهدت جدلًا عقديًا واسعًا في القرون المتأخرة، خاصة في مسائل تتعلق بالغيب، وتأويل النصوص، وحدود الأخذ بالظاهر، مما جعل مسألة أشراط الساعة –ومنها الدخان– ساحةً لبيان المنهج العقدي لكل مدرسة. فبعضهم مال إلى حمل الدخان على ما وقع في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، مستندًا إلى ما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه [2]، وبعضهم رجّح كونه من العلامات الكبرى المستقبلية، مستدلًا بحديث حذيفة بن أسيد رضي الله عنه [3] في تعداد الأشراط الكبرى. وبعضهم توسعوا في حمله على دلالات رمزية أو ظواهر حضارية أو تحولات بيئية معاصرة.

ومن هنا فإن دراسة «الدخان» لا تقتصر على بيان معناه، بل تتجاوز ذلك إلى الكشف عن مناهج التفسير في قضايا الغيب، والتمييز بين مسلك أهل الحديث والأثر، ومسلك التأويل العقلي أو القراءة الحداثية للنصوص. وستتناول هذه المقالة هذا الموضوع من خلال الموضوعات التالية:

أولا: معنى الدخان لغة واصطلاحا

ثانيا: الأدلة الشرعية في إثبات الدخان.

ثالثا: آراء العلماء التراثيين في مسألة الدخان.

رابعا: آراء العلماء الحداثيين في مسألة الدخان.

أولا: تعريف الدخان لغة واصطلاحا:

تعريف الدخان لغةً: تناول أئمة اللغة لفظ «الدخان» في معاجمهم، مقرّرين معناه الحسي المشاهد. قال الجوهري[4]: «دُخان النار معروف، والجمع دواخن، كما قالوا عثان وعواثن، على غير قياس» [5]. فكان الدخان أمرًا معلومًا في اللغة العربية، لا يحتاج إلى تعريفٍ اصطلاحي، لكونه من الأشياء الحسية الظاهرة، وهو ما يتصاعد من النار عند احتراقها.

---

1 – سورة الدخان، رقم الآية: 10.

2 – هو عبد الله بن مسعود بن غافل الهذليّ، أبو عبد الرحمن: صحابي، من السّابقين إلى الإسلام، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة، وممّن شهدوا بدرا، وأحد المبشّرين بالجنّة، معلّم أهل الكوفة وقاضيها. أنظر: الإصابة في تمييز الصحابة (1/ 58)، والأعلام للزركلي (4/ 137).

3 – هو حذيفة بن أسيد بن خالد بن الأغوز بن واقعة بن حرام بن غفار الغفاريّ، أبو سريحة الغفاري، مشهور بكنيته. شهد الحديبيّة، وذكر فيمن بايع تحت الشّجرة، ثم نزل الكوفة، وتوفي بها. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (2/ 38)، وأسد الغابة ط العلمية (1/ 703).

4 – هو إسماعيل بن حماد الجوهري، أبو نصر: أول من حاول (الطيران) ومات في سبيله. لغويّ، من الأئمة. الأعلام للزركلي (1/ 313) .

5 – الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، (5/ 2111). لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة 1407 هـ – 1987 م.

ISSN E: 2709-8273
ISSN P:2709-8265
JOURNAL OF APPLIED LINGUISTICS AND TESOL
JALT

وقال الزبيدي[6] في تاج العروس: «الدُّخَّانُ (مثل رُمَّان) وهو المشهور على الألسنة: (العُثانُ) وهو معروف، (ج أَدْخِنَةٌ ودَواخِنُ ودَواخِينُ)، ومِثل دُخان ودَواخِن عُثَان وعَواثِن على غير قياس» [7].

ويتبيّن من مجموع كلام أهل اللغة أن الدخان في أصل وضعه يدل على:

- جسمٍ لطيفٍ متصاعدٍ في الهواء،
- ناشئٍ عن احتراقٍ أو نار،
- يترتب عليه غشاوةٌ وكدورةٌ في الجو.

فهو – بحسب الأصل اللغوي – حقيقةٌ حسيةٌ ظاهرة، لا مجاز فيها ابتداءً، ولا يُحمل على معنى معنوي إلا بقرينةٍ صارفة.

وفي الاصطلاح العقدي –في ضمن مباحث أشراط الساعة– فإن «الدخان» يُطلق على علامةٍ كبرى من العلامات التي تسبق قيام الساعة، وتكون ذات طابعٍ كونيٍّ عام، بحيث تمسّ الناس أو تغشاهم على وجهٍ مخصوص.

والذي يلاحظ هنا أنه في استعمال العلماء لهذا اللفظ أنهم لا يخرجون في تعريفه الاصطلاحي عن معناه اللغوي من حيث كونه ظاهرةً محسوسة، لكنهم يضيفون إليه عنصرين آخرين:

- كونه آيةً من آيات الله العظام التي تقع في سياق التحولات الكبرى السابقة للقيامة.
- ارتباطه بالأمور الغيبية من حيث زمن وقوعه وكيفيته، مما يجعله من المسائل التي يُبنى فيها الحكم على النصوص، لا على مجرد الاستقراء الحسي فقط.

فنجد أن الدخان – بوصفه علامةً من علامات الساعة – ينجلي فيه الاختلافات والفروق المنهجية بين المدارس التفسيرية من حيث إنه:

- هل يُحمل على حقيقته الظاهرة العامة؟
- أم يُقيّد بحدث تاريخي معيّن؟
- أم يصرف تأويله بما يطابق قراءاتٍ علمية أو رمزية حديثة؟

وسنبحث هنا هذه الأسئلة المنهجية بعرض أقوال عدد من العلماء التراثيين والحداثيين، مع توضيح الأسس التي انطلقوا منها في تفسير هذه العلامة، وبيان الطريقة التي فهموا بها النصوص الواردة فيها.

فالدخان من أشراط الساعة الكبرى التي أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم، وقد ورد في القرآن الكريم عن هذه العلامة، وأنها من العلامات التي يشاهدها البشرية، وقد فسرها المفسرون والعلماء في كتبهم بتفسيرات ظاهرية ومجازية، وسأذكر أقوال تلك العلماء التراثيين والحداثيين حول الدخان، وقبلها لابد من الأدلة عليها حتى يتضح أمرها، وإليك التفاصيل.

ثانيا: أدلة الكتاب والسنة في إثبات الدخان:

الآيات التي ورد فيها ذكر الدخان: لما كان الدخان من العلامات التي أثارت عناية المفسرين وأهل الاعتقد، كان من اللازم البدء باستقراء مواضع ذكره في القرآن الكريم، قبل الانتقال إلى مناقشة أقوال العلماء في تعيين المراد به. فالمنهج العلمي في دراسة مسائل الغيب يقتضي الانطلاق من النص القرآني أولًا، بوصفه الأصل الأعلى الذي تُردّ إليه الأقوال، ثم يُنظر بعد ذلك في بيان السنة، ثم في اجتهادات أهل العلم.

وقد ورد ذكر الدخان في القرآن الكريم على وجهٍ صريح في سورةٍ مستقلة سُمّيت باسمه، وهي سورة الدخان، السورة الرابعة والأربعون في ترتيب المصحف، الواقعة في الجزء الخامس والعشرين. وتسمية السورة بهذا الاسم تدل على عِظم شأن هذه الآية، وكونها محورًا من محاور السورة الرئيسة؛ إذ جرت عادة القرآن أن يُسمّي بعض السور بأبرز ما يرد فيها من القضايا العظام أو المشاهد المؤثرة.

---

6 – هو محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزبيدي، أبو الفيض، الملقب بمرتضى: علّامة باللغة والحديث والرجال والأنساب، من كبار المصنفين. أصله من واسط (في العراق) ومولده بالهند (في بلجرام) ومنشأه في زبيد (باليمن) رحل إلى الحجاز، وأقام بمصر، وتوفي بالطاعون في مصر. الأعلام للزركلي (7/ 70)

7 – تاج العروس من جواهر القاموس (34/ 512) ، لمحمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.

ISSN E: 2709-8273
ISSN P:2709-8265
JOURNAL OF APPLIED LINGUISTICS AND TESOL
JALT

ويظهر من سياق السورة أن الحديث عن الدخان جاء في إطار التهديد والإنذار، وربطه بمشهدٍ عظيمٍ يتصل بالعذاب الإلهي، مما جعل المفسرين يختلفون في تعيين زمنه: أهو عذابٌ وقع بالفعل، أم علامةٌ مستقبلية من علامات الساعة الكبرى؟ وهذا الخلاف هو الذي شكّل الأساس لمباحث عقدية واسعة في كتب التفسير وأشراط الساعة.

نص الآيات الواردة في الدخان: قال الله تعالى في سورة الدخان: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (10) يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (11) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (12) أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ [8].

فالآيات تصوّر مشهدًا مهيبًا: أمرٌ للنبي صلى الله عليه وسلم بالارتقاب، ثم مجيء السماء بدخانٍ «مبين»، أي ظاهرٍ بيّنٍ لا لبس فيه، يعمّ الناس ويغشاهم، حتى يقرّوا بأنه عذاب أليم، ثم يتوجهوا بالدعاء لكشفه، لكن بعد فوات أوان الانتفاع بالتذكير.

ومن خلال التركيب القرآني يُلحظ ما يلي:

- أن الدخان منسوب إلى السماء: ﴿تأتي السماء بدخان﴾،
- وأنه ذو شمولٍ عام: ﴿يغشى الناس﴾،
- وأنه موصوف بالبيان والوضوح: ﴿دخان مبين﴾،
- وأنه مقترن بوصف العذاب: ﴿هذا عذاب أليم﴾.

وهذه الأوصاف مجتمعة كانت منطلقًا لاختلاف المفسرين في تحديد المراد.

أقوال المفسرين في تعيين الدخان: ذكر الإمام الطبري –رحمه الله–[9] في تفسيره اختلاف أهل التأويل في هذا الدخان، فقال: "اختلف أهل التأويل في هذا الذي أمر الله عزّ وجلّ نبيه صلى الله عليه وسلم أن يرتقبه، وأخبره أن السماء تأتي فيه بدخان مبين: أي يوم هو، ومتى هو؟ وفي معنى الدخان الذي ذُكر في هذا الموضع، فقال بعضهم: ذلك حين دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على قريش ربه تبارك وتعالى أن يأخذهم بسنين كسني يوسف، فأخذوا بالمجاعة، قالوا: وعنى بالدخان ما كان يصيبهم حينئذ في أبصارهم من شدّة الجوع من الظلمة كهيئة الدخان[10] ... وقال آخرون: الدخان آية من آيات الله، مرسلة على عباده قبل مجيء الساعة، فيدخل في أسماع أهل الكفر به، ويعتري أهل الإيمان به كهيئة الزكام، قالوا: ولم يأت بعد، وهو آت[11]... وأولى القولين بالصواب في ذلك ما رُوي عن ابن مسعود من أن الدخان الذي أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يرتقبه، هو ما أصاب قومه من الجهد بدعائه عليهم، على ما وصفه ابن مسعود من ذلك إن لم يكن خبر حذيفة الذي ذكرناه عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم صحيحا، وإن كان صحيحا، فرسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم بما أنزل الله عليه، وليس لأحد مع قوله الذي يصح عنه قول" [12].

ويتضح من كلام الطبري رحمه الله أنه حكى قولين رئيسين:

القول الأول: أن الدخان قد وقع بالفعل، وكان نتيجة دعاء النبي صلى الله عليه وسلم على قريش، فأصابهم القحط والجوع، حتى صار الرجل يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان من شدة الجهد. وهذا مرويّ عن ابن مسعود رضي الله عنه، ومال إليه الطبري بشرط عدم ثبوت الخبر المرفوع المخالف.

القول الثاني: أن الدخان علامة مستقبلية من علامات الساعة، لم تقع بعد، وستكون آيةً كونيةً عامة قبل قيام الساعة، تصيب الناس على وجهٍ مخصوص.

---

8 – سورة الدخان، رقم الآية: 10-13.

9 – هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر: المؤرخ المفسر الإمام. ولد في آمل طبرستان، واستوطن بغداد وتوفي بها. وعرض عليه القضاء فامتنع، والمظالم فأبى. وهو من ثقات المؤرخين، وفي تفسيره ما يدل على علم غزير وتحقيق. وكان مجتهدا في أحكام الدين لا يقلد أحدا، بل قلده بعض الناس وعملوا بأقواله وآرائه. وكان أسمر، أعين، نحيف الجسم، فصيحا الأعلام للزركلي(69 /6) .

10 – جامع البيان في تأويل القرآن، لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 2000 م. (13 /22).

11 – تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر(16 /22) .

12 – المصدر السابق، (18 /22) .

ISSN E: 2709-8273
ISSN P:2709-8265
JOURNAL OF APPLIED LINGUISTICS AND TESOL
JALT

ومن دقة منهج الطبري أنه لم يقتصر على الترجيح المجرد، بل قيّد اختياره بثبوت الخبر النبوي، مقرّرًا قاعدة أصولية مهمة، وهي أن النص الصحيح المرفوع مقدّم على غيره، وأنه "ليس لأحد مع قوله الذي يصح عنه قول" .

أثر الخلاف في مباحث أشراط الساعة: ويُعدّ هذا الخلاف من أوائل المواطن التي ظهر فيها التباين بين من يرى الدخان حادثةً تاريخية منتهية، ومن يراه علامةً كبرى مستقبلية. وقد ترتب على هذا الخلاف توسّعٌ في كتب التفسير والعقيدة، خصوصًا عند من ألحق الدخان بأشراط الساعة الكبرى، وعدّه من العلامات العامة التي تسبق القيامة مباشرة.

ومن هنا يتبين أن دراسة هذه الآيات ليست مجرد بحثٍ لغوي أو تفسيري، بل هي مدخلٌ رئيس لفهم طبيعة العلامات الغيبية، ومنهج العلماء في الجمع بين النصوص، وترجيح بعض الأقوال بناءً على ثبوت الأدلة ودلالاتها.

الأحاديث الصريحة الصحيحة حول الدخان: فلما كان القرآن الكريم قد أشار إلى الدخان في سياق الإنذار والتهديد، فإن السنة النبوية جاءت ببيانٍ أوضح وأصرح في عدِّه من الآيات العظام التي تسبق قيام الساعة. ومن المقرر في منهج أهل السنة أن بيان المجمل القرآني، وتفصيل ما أُجمل فيه، إنما يكون في كثير من المواضع بالسنة النبوية، لاسيما في أبواب الغيب وأشراط الساعة، حيث وردت النصوص الحديثية بذكر العلامات وترتيب بعضها على بعض، وبيان عددها وخصائصها.

وقد تواترت الأحاديث في ذكر الدخان ضمن جملة العلامات الكبرى، وقرنته بسائر الآيات العظام، كالدجال، وطلوع الشمس من مغربها، والدابة، وغيرها. وهذا الاقتران له دلالته؛ إذ يدل على أن الدخان ليس حادثة عارضة، ولا واقعة تاريخية منقطعة، بل هو من جملة الوقائع الكونية الجليلة التي تشكّل مفاصل المرحلة الأخيرة من تاريخ البشرية.

وفيما يأتي عرضٌ لأهم الأحاديث الصحيحة الصريحة في ذكر الدخان، مع بيان دلالتها في هذا الباب.

أولًا: حديث حذيفة بن أُسيد الغفاري رضي الله عنه، فقد روى مسلم[13] في صحيحه عن حذيفة بن أُسيد الغفاري رضي الله عنه قال: «اطَّلَعَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ، فَقَالَ: مَا تَذَاكَرُونَ؟ قَالُوا: نَذْكُرُ السَّاعَةَ، قَالَ: إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ — فَذَكَرَ — الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ ...» [14]. وهذا الحديث أصلٌ في باب أشراط الساعة الكبرى؛ إذ نصّ فيه النبي صلى الله عليه وسلم على عددٍ معيّن من الآيات العظام، وذكر الدخان في مقدمتها أو ضمنها على اختلاف الروايات. ودلالته واضحة من جهات عدة:

- أنه عدّ الدخان من الآيات الكبرى التي تقع قبل قيام الساعة مباشرة.
- أنه قرنه بالدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها، وهي أحداث متفق على كونها من العلامات العظمى.
- أن التعبير بقوله: «لن تقوم حتى تروا» يفيد تحقق الوقوع حتمًا قبل قيام الساعة.

فهذا النص صريح في كون الدخان آية مستقبلية عامة يشاهدها الناس، وليست مجرد أمرٍ معنوي أو مجازي.

ثانيًا: حديث أبي هريرة رضي الله عنه[15]، فقد روى مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا: الدَّجَّالَ، وَالدُّخَانَ، وَدَابَّةَ الْأَرْضِ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ...» [16]. وهذا الحديث يؤكد المعنى السابق من جهةٍ أخرى؛ إذ لم يقتصر على الإخبار بوقوع هذه الآيات، بل رتّب عليها أثرًا عمليًا، وهو الأمر بالمبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل حلولها.

فالأمر بالمبادرة يدل على أن هذه الأحداث إذا وقعت ترتّب عليها تغيرٌ في حال الناس، وانغلاقٌ لباب التدارك، أو وقوع فتن عظيمة لا يُتمكَّن معها من العمل كما كان من قبل. ومن هنا كان ذكر الدخان في سياق التحذير والاستعداد، لا في سياق الحكاية التاريخية.

---

13 – هو مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوريّ، أبو الحسين: حافظ، من أئمة المحدثين. ولد بنيسابور، ورحل إلى الحجاز ومصر والشام والعراق، وتوفي بظاهر نيسابور. أشهر كتبه (صحيح مسلم – ط) جمع فيه اثني عشر ألف حديث، كتبها في خمسة عشر سنة، وهو أحد الصحيحين المعول عليهما عند أهل السنة، في الحديث، وقد شرحه كثيرون. الأعلام للزركلي(221 /7) .

14 – المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، لمسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، (4/ 2225)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي — بيروت.

15 – هو أبو هريرة الدوسي الصحابي الجليل حافظ الصحابة اختلف في اسمه واسم أبيه قيل عبد الرحمن بن صخر وقيل بن غنم وقيل عبد الله بن عائذ وقيل بن عامر. مات سنة سبع وقيل سنة ثمان وقيل تسع وخمسين وهو بن ثمان وسبعين سنة. انظر: تقريب التهذيب (ص: 1218)، والإصابة في تمييز الصحابة، (348/7).

16 – صحيح مسلم، (4/ 2267).

ISSN E: 2709-8273
ISSN P:2709-8265
JOURNAL OF APPLIED LINGUISTICS AND TESOL
JALT

وتجمع هذه النصوص بين أمرين مهمين:

- التصريح بذكر الدخان ضمن العلامات الكبرى،
- وربطه بقرب قيام الساعة، مع اقترانه بأحداث كونية عظيمة.

وهذا السياق الحديثي يعزّز القول بأن الدخان آية مستقبلية عامة، تقع في المرحلة الأخيرة من عمر الدنيا، وأنه من جملة الوقائع التي تغيّر نظام العالم قبل قيام الساعة. كما أن تعدد الطرق والروايات، وورود الحديث في الصحيح وغيره، يقوّي دلالته من جهة الثبوت، ويجعل الاستدلال به في هذا الباب استدلالًا متينًا. وسيأتي في مايلي؛ كيفية فهم العلماء لهذه النصوص، وبيان مسالكهم في الجمع بينها وبين الآية القرآنية، وهل يحملونها على واقعةٍ ماضية، أم على علامةٍ منتظرة، أم يجمعون بين الأمرين.

ثالثا: آراء العلماء التراثيين حول الدخان

بعد عرض النصوص القرآنية والحديثية الواردة في شأن الدخان، يحسن الانتقال إلى بيان مواقف العلماء التراثيين من هذه العلامة، وكيفية فهمهم للنصوص الواردة فيها. ويقصد بالعلماء التراثيين هنا أولئك الذين جَرَوا في تقرير مسائل الغيب وأشراط الساعة على منهج أهل السنة في إثبات ما ثبت بالنقل، مع حمل النصوص على ظاهرها ما لم يقم صارف صحيح، وردّ التأويلات التي تُخرجها عن معناها المتبادر بلا دليل.

وسنطرح موقف الاتجاه التراثي من هذه العلامة من خلال نموذجٍ أبرز ممثلي الاتجاه التراثي في شبه القارة الهندية، وهو النواب صديق حسن خان[17]، وقد قرر موقفه على منهج الإثبات في مسائل الغيب، والاعتماد على ظاهر النصوص مع ردّ التأويلات التي تصرفها عن مدلولها المتبادر بلا دليل معتبر.

فالنوّاب ينطلق في تقريره لأشراط الساعة من أصلٍ عقديّ واضح، مؤدّاه وجوب الإيمان بكل ما صحّ به النقل عن النبي ﷺ، سواء أدرك العقل كيفيته أم جهلها. فقد نصّ في كتابه قطف الثمر على أن ما ثبت خبره في الغيبيات يجب قبوله والتسليم له، وأن مناط الإيمان هو صحة الرواية، لا موافقتها للتصورات الذهنية. ويدخل الدخان عنده في هذا الإطار، بوصفه علامةً من علامات الساعة ثبتت بالنقل الصحيح، يقول: "ويجب الإيمان بكل ما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم، وصح به الخبر عنه ، مما شهدناه أو غاب عنا أنه صدق وحق ، سواء في ذلك ما عقلناه ، أو جهلناه، ولم نطلع على حقيقة معناه، وكان يقظة لا مناما. ومن ذلك أشراط الساعة ... وأشباه ذلك مما صح به النقل"[18].

وهذا النص يؤسس لأصلٍ منهجي واضح، وهو أن قضايا الغيب تُتلقّى بالتسليم للنقل الصحيح، دون اشتراط إدراك العقل لتفاصيلها أو كيفياتها. فهو يصرّح بأن معيار القبول هو صحة الخبر لا إمكان التصوّر الذهني، ويؤكد أن أشراط الساعة داخلة دخولًا أوليًا في هذا الأصل. وبذلك يُغلق الباب أمام التأويلات العقلانية التي تشترط قابلية الحدث للتفسير المادي أو التاريخي حتى يُقبل.

ثم أفرد للدخان في كتابه الإذاعة بابًا مستقلًا بعنوان: "باب ومن أشراط الساعة الدخان" فقال: "وهو بعد دابة الأرض ، ويمكث في الأرض أربعين يوماً ، كما في الحديث المرفوع من رواية حذيفة بن أسيد عند مسلم والترمذي[19] وابن ماجه[20]. ويأخذ بأنفاس الكفار، ويأخذ المؤمنين كهيئة الزكام ويكون قبل الريح لأن بعد الريح لا يبقى مؤمن، وإنما يكون قريباً من قيام الساعة" [21].

---

17 – هو الإمام العلامة المحقق النواب أبو الطيب محمد صديق بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني القِنَّوجي البخاري نزيل بهوبال، وزوج الملكة شاه جيهان؛ ملكة بهوبال،ويرجع نسبه إلى زين العابدين بن علي بن الحسين السبط بن علي بن أبي طالب. وأحد أبرز أعلام المدرسة الحديثية في شبه القارة الهندية في القرن الثالث عشر الهجري. يُعَدّ من العلماء التراثيين الذين ناصروا منهج المحدثين، واعتنوا بإحياء علوم السنة والتفسير والعقيدة على طريقة السلف.

18 – قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر،لأبي الطيب محمد صديق خان الحسيني البخاري القِنَّوجي، (121-123)، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1421هـ..

19 – هو محمد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمي البوغي الترمذي، أبو عيسى: من أئمة علماء الحديث وحفاظه، من أهل ترمذ، تتلمذ للبخاريّ، وشاركه في بعض شيوخه. وقام برحلة إلى خراسان والعراق والحجاز وعمي في آخر عمره. وكان يضرب به المثل في الحفظ. الأعلام للزركلي (6/ 322).

20 – هو محمد بن يزيد الربعي القزويني، أبو عبد الله، ابن ماجة: أحد الأئمة في علم الحديث. من أهل قزوين. رحل إلى البصرة وبغداد والشام ومصر والحجاز والري، في طلب الحديث. وصنف كتابه (سنن ابن ماجة – ط) مجلدان، وهو أحد الكتب الستة المعتمدة. الأعلام للزركلي (7/ 144).

21 – الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة، للنواب صديق حسن خان، 174، مكتبة الثقافة، المدينة المنورة، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان.

ISSN E: 2709-8273
ISSN P:2709-8265
JOURNAL OF APPLIED LINGUISTICS AND TESOL
JALT

ويتضح من هذا النص أن النوّاب لا يكتفي بإثبات أصل الدخان، بل يحدّد موقعه الزمني ضمن ترتيب العلامات الكبرى، ويبيّن مدته، وآثاره المتباينة على المؤمن والكافر، وزمن وقوعه بالنسبة للريح التي تقبض أرواح المؤمنين. وهذا يدل على تعامله مع الدخان بوصفه واقعة كونية محسوسة، ذات آثار جسمية حقيقية، لا رمزًا ولا مجازًا. كما أن ربطه بقرب قيام الساعة يؤكد إدراجه ضمن المرحلة النهائية من أشراطها الكبرى.

كما قرر ثبوته بالكتاب والسنة معا، فقال: "قال العلماء: آية الدخان ثابتة بالكتاب والسنة، أما الكتاب فقوله تعالى: (فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين) . قال ابن عباس[22]، وابن عمر[23]، وزيد بن على[24] رضي الله عنهم وغيرهم: "هو دخان قبل قيام الساعة يدخل فى أسماع الكفار والمنافقين" [25].

فهو رحمه الله يعتمد على منهج الاعتماد على القرآن والسنة، ويعضدهما بأقوال الصحابة والتابعين، ليؤكد أن تفسير الآية على أنها دخان مستقبلي هو تفسير سلفيّ مأثور، لا اجتهاد حادث. واستشهاده بهذه الآثار يهدف إلى ترسيخ الفهم الظاهري للنص القرآني وربطه بالسياق الأخروي، لا التاريخي.

ثم قال في تقرير ثبوته من السنة: "وأما السنة فكثيرة منها ما أشرنا إليه ، ومنها حديث حذيفة عند الطبراني[26]، وفيه أن «من أشراط الساعة دخاناً يملى ما بين المشرق والمغرب يمكث في الأرض أربعين يوماً ، أما المؤمن فيصيبه منه شبه الزكام ، وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران يخرج الدخان من فيه ومنخريه وعينيه وأذنيه ودبره » . إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة في الصحيح وغيره" [27].

ويبرز في هذا النص تأكيد النوّاب على عمومية الدخان "ما بين المشرق والمغرب"، وعلى طبيعته الحسية الظاهرة، وعلى اختلاف أثره بين المؤمن والكافر، وهو توصيف تفصيلي يستحيل حمله على المجاز أو الرمز. كما أن تعبيره بـ"الأحاديث الواردة في الصحيح وغيره" يدل على اعتماده التراكمي على مجموع الروايات، لا على حديث مفرد، في تقرير هذه العقيدة. فموقفه صريح في إثبات الدخان على ظاهره، ضمن العلامات الكبرى، مع رفض أي صرف له عن حقيقته الكونية. وتبيّن مما سبق أن النواب صديق حسن خان قرّر مسألة الدخان على وفق أصول عقدية منضبطة، ممثّلًا اتجاه العلماء التراثيين في شبه القارة الهندية، ويمكن إجمال أبرز معالم تقريره في النقاط الآتية:

- إثبات الغيب بالنقل الصحيح وتقديمه دون إخضاعه للمقاييس العقلية أو القراءات التاريخية.
- حمل نصوص أشراط الساعة على ظاهرها، ما لم يرد صارف معتبر.
- اعتبار الدخان علامة كبرى مستقبلية ذات حقيقة كونية عامة.
- الاعتماد على القرآن والسنة وآثار السلف في تقرير المسألة.
- رفض أي تأويل يُفرغ النصوص من مدلولها الظاهر الصريح.

وعليه، فإن موقف النوّاب يمثل نموذجًا ناضجًا للتراث الحديثي العقدي في شبه القارة الهندية، ويكشف عن رؤية متماسكة ترى الدخان حدثًا أخرويًا حقيقيًا، لا مجرّد ظاهرة رمزية أو واقعة تاريخية منقضية، وهو ما يجعله مرجعًا أساسًا في هذا البحث لمقارنة الاتجاه التراثي بالقراءات التأويلية الحديثة، فموقفه يمثل الامتداد الطبيعي للمدرسة الحديثية العقدية في التعامل مع نصوص أشراط الساعة، ويشكّل في الوقت نفسه خلفيةً منهجيةً مهمة لفهم ما سيأتي من مواقف الحداثيين في هذا الباب.

---

22 – هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، القرشي الهاشمي، أبو العباس: حبر الامة، بن عم رسول الله صلى الله عليه و سلم ولد بمكة قبل الهجرة بثلاث سنين، ودعا له رسول الله صلى الله عليه و سلم بالفهم في القرآن فكان يسمى البحر والحبر لسعة علمه، وقد كف بصره في آخر عمره، فسكن الطائف، وتوفي بها. وهو أحد المكثرين من الصحابة وأحد العبادلة من فقهاء الصحابة. تقريب التهذيب (ص: 518)، والأعلام للزركلي (4/ 95).

23 – هو عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي أبو عبد الرحمن، صحابي، من أعز بيوتات قريش في الجاهلية. كان جريئا جهيرا. ولد بعد المبعث بيسير، وهاجر إلى المدينة مع أبيه، واستصغر يوم أحد وهو بن أربع عشرة، وشهد فتح مكة، وهو أحد المكثرين من الصحابة والعبادلة وكان من أشد الناس اتباعا للأثر. أفتى الناس في الإسلام ستين سنة. وكف بصره في آخر حياته. وهو آخر من توفي بمكة من الصحابة. انظر: تقريب التهذيب (ص: 528)، والأعلام للزركلي (4/ 108).

25 – الإذاعة، 174.

26 – هو سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم: من كبار المحدثين. أصله من طبرية الشام، وإليها نسبته. ولد بعكا، ورحل إلى الحجاز واليمن ومصر والعراق وفارس والجزيرة، وتوفي بأصبهان. له ثلاثة (معاجم) في الحديث. الأعلام للزركلي (3/ 121).

27 – الإذاعة، ص:174.

ISSN E: 2709-8273
ISSN P:2709-8265
JOURNAL OF APPLIED LINGUISTICS AND TESOL
JALT

رابعا: آراء الحداثيين حول الدخان

بعد عرض مواقف العلماء التراثيين الذين قرروا الدخان بوصفه علامة كونية مستقبلية تُحمل على ظاهرها، يحسن الانتقال إلى الاتجاه المقابل، وهو اتجاه بعض المفكرين الحداثيين في شبه القارة الهندية؛ الذين أعادوا قراءة النصوص الواردة في الدخان في ضوء تصورات عقلانية معاصرة، ومحاولة مواءمتها مع مقتضيات العقل الحديث، وسنن الاجتماع البشري، والتفسير التاريخي للظواهر.

ولا يُقصد بالحداثة هنا مجرد التأخر الزمني، بل منهجٌ في الفهم يقوم على إعادة تفسير النصوص الغيبية تفسيرًا عقلانيًا أو رمزيًا أو تاريخيا أو علميا، ورفض حملها على الوقائع الخارقة للعادة، أو الأحداث الكونية الاستثنائية، إلا بقدر ما يمكن إخضاعه لنظام الأسباب المعهود في العالم.

ومن أبرز من يمثل هذا الاتجاه في شبه القارة الهندية: مولانا أمين أحسن إصلاحي[28]، ووحيد الدين خان[29]، وفيما يأتي عرض لنصوصهما المختارة، يعقبه تحليل موضوعي لمنهجهم في تفسير الدخان.

أولًا: تفسير أمين أحسن إصلاحي للدخان: فقد تناول قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يُغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فأثار سؤالًا مباشرًا بقوله: "هنا يَظهر هذا السؤال: ما المقصود بـ (الدخان المبين)؟"، ثم بيّن متصلا بأن المراد دخان ظاهر يراه الجميع، فقال: "فمعنى الدخان هو الدخان نفسه، ومع صفة (مبين) يتضح أن المراد دخان يكون بحيث يراه كل أحد، صغيراً كان أو كبيراً، بوضوح تام، فلا يكون فيه مجال لاشتباه عند أي أحد"[30].

غير أنه رفض حمل الآية على علامة من علامات الساعة، وصرح بقوله: "إن جماعة من المفسرين أجابوا عن ذلك بأن هذا الدخان سيظهر عند قيام الساعة. وقد أوردوا في تأييده رواية، لكن نقّاد الحديث عدّوا هذه الرواية من روايات القصّاص وردّوها. ونحن نرى أن هذه الرواية أيضاً مخالفة لسياق الآيات. وسوف ترى أن سياق الكلام يدلّ بوضوح على أن هذا ليس ذكراً للقيامة، بل هو عذاب نزل على أقوام نتيجة لتكذيبهم للرسل"[31].

كما حمل الدخان على القحط الذي أصاب قريشا، وذكر أن كثير من المفسرين مالوا إليه، فقال: "أخذ فريق آخر من هذا معنى القحط، والذي بحسب بيانهم وقع في قريش بعد الهجرة نتيجة دعاء النبي ﷺ عليهم، حتى اشتد الأمر بهم لدرجة أن الناس أُجبروا على أكل الميتة، وصار حال كل واحد من شدة الجوع أنه إذا رفع نظره إلى السماء رآها كأنها دخان منتشر" [32]. لكنه رفض هذا التفسير أيضًا، وصرّح بقوله: "وقد اختار مفسرونا عموماً هذا القول الثاني، لكن فيه عدة أمور تُزعجني" [33].

ثم أسّس اعتراضه الرئيسي على هذا التفسير من خلال قراءة سيرة النبي ﷺ العملية، فقال: "أولًا: إنّ ذِكر دعاءٍ على قومه جميعًا من النبي السليم ﷺ هكذا لا يُوجد إلا في هذه الرواية التفسيرية فقط. ولا توجد أي شهادة أخرى تثبت أن النبي السليم ﷺ دعا على قومه. بل كان دعائه لقومه دائمًا: (اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون)" [34].

---

28 – هو أمين أحسن إصلاحي (1904–1997م) عالمٌ ومفسّرٌ وباحثٌ باكستاني معاصر، وُلد في قرية بيمهور بمدينة نوح في الهند. تلقّى علومه في العربية والفارسية والقرآن والتفسير والحديث والفقه والفلسفة والمنطق، وتتلمذ على الإمام حميد الدين فراهي وكان من خواص تلاميذه في أواخر حياته، وكان من كبار علماء الدين المنتمين إلى مدرسة فراهي ومن أبرز ممثّلي مدرسته الفكرية، حيث يعدّ أوّل من أظهر وأسهم في تطوير أفكاره ونشرها.

29 – هو وحيد الدين خان (1925–2021م) مفكّرٌ وداعيةٌ إسلامي هندي، تخرّج في مدرسة الإصلاح بأعظم كره، وعُرف بغزارة تأليفه وتنوّع إنتاجه الفكري. تولّى رئاسة المركز الإسلامي بنيودلهي، وأصدر مجلة «الرسالة». ويُعَدّ من أبرز الوجوه الحداثية في شبه القارة الهندية؛ إذ اتسم مشروعه الفكري بإعادة قراءة المفاهيم الدينية الأساسية بروح تجديدية، مع تركيزٍ واضح على الحوار بين الأديان، وترسيخ ثقافة السلم، وتقديم خطاب دعوي موجَّه إلى السياق المعاصر.

30 – تدبر قران، لمولانا أمين احسن اصلاحي، سورة الدخان، (273/7) . الإشراف: حسن ظفر، الطباعة: كيوب واي برنترز، طريق ماكلوڈ، لاهور، تاريخ النشر: نوفمبر 2009م — ذي القعدة 1430هـ، الناشر: مؤسسة فاران، الدور الثاني، عمارة مطبع علق 19-أ، طريق ايبت، لاهور، باكستان.

31 – تدبر قران، لأمين احسن اصلاحي، سورة الدخان، (273/7).

32 – المصدر السابق، (273/7).

33 – المصدر السابق، (273/7).

34 – المصدر السابق، (273/7).

ISSN E: 2709-8273
ISSN P:2709-8265
JOURNAL OF APPLIED LINGUISTICS AND TESOL
JALT

فهو لا يناقش الرواية من جهة الإسناد فحسب، بل يبني اعتراضه على قراءةٍ كليةٍ لشخصية النبي ﷺ ومنهجه الدعوي؛ إذ يرى أن سيرة النبي العملية – في الهجرة، وفي الحروب، وفي مواقفه مع قريش – تدل على غلبة خُلُق الدعاء بالهداية، لا الدعاء بالاستئصال العام. ومن ثمّ اعتبر نسبة دعاءٍ شامل بالقحط إلى النبي ﷺ أمرًا يحتاج إلى شاهدٍ قوي يتجاوز مجرد الرواية التفسيرية.

وبعد أن قرر إصلاحي اعتراضه الأول القائم على استبعاد صدور دعاء عام بالقحط من النبي ﷺ، انتقل إلى تعميق اعتراضه من خلال استحضار المواقف المفصلية في السيرة النبوية، مستندًا إلى قراءة تاريخية–سياقية متكاملة.

الاعتراض الثاني: واستدل كذلك بموقف الحديبية مؤكدا أن النبي صلى الله عليه وسلم كف المسلمين عن القتال مراعاة للمستضعفين في مكة، فقال: "ثانيا: أنّ أدقّ موقف بعد الهجرة هو موقف الحديبية ... لكن في ذلك الموقف أيضًا لم يدعُ ﷺ على قريش، بل ليس فقط أنّه لم يدعُ عليهم، وإنما كبح مشاعر المسلمين المشتعلة، ومنعهم من القتال. وقد بيّن القرآن، كما سيأتي تفصيله في سورة الفتح، أنّ الحكمة في منع الحرب هي أنّه لو وقعت لكان الخطر أن يُصاب أولئك الذين كانوا مسلمين من قلوبهم ولكن لم يتمكنوا بعد من الهجرة من مكة بسبب أعذارهم. فتأمل: حين كفّ المسلمون سيوفهم المغمدة مراعاةً لأولئك المسلمين المستضعفين في مكة، وعقد النبي السليم ﷺ مع قريش صلحًا يخالف المشاعر العامة للصحابة، فكيف كان يمكن أن يدعو ﷺ على أهل مكة بدعاء قحط يهلكهم حتى يضطروا إلى أكل الميتة؟ مثل هذا القحط لو وقع لم يكن ليصيب زعماء مكة والطائف فقط، بل كان هجومه الأصلي يقع على الفقراء والعامة، الذين كان فيهم عدد كبير من المسلمين أيضًا" [35].

ويتضح منه أن إصلاحي يبني استدلاله على مبدأ الاتساق بين الفعل التاريخي والمعنى التفسيري؛ فهو يرى أن من منع الحرب صيانةً للمستضعفين لا يمكن أن يدعو بدعاء عام يؤدي إلى هلاكهم ضمنًا. وعليه فإن رواية القحط –في تصوره– تصطدم بالمنهج النبوي في رعاية المؤمنين المستضعفين داخل مكة.

الاعتراض الثالث: ثم أضاف اعتراضا سياقيا آخر، وهو عدم الأمر بالدعاء أصلًا: فقال: "ثالثًا: أنّ النبي ﷺ لم يُؤمر هنا بأي دعاء لهم ولا عليهم، بل أُمر بالصبر وانتظار يومٍ يظهر فيه السماء بدخانٍ يعمّ القوم كلهم" [36]. فهو يرى أن السياق القرآني في سورة الدخان لا يتضمن تكليفًا للنبي ﷺ بالدعاء، وإنما يتضمن أمرًا بالترقب والصبر، مما يجعل حمل الآية على دعاء بالقحط خروجًا –في نظره– عن ظاهر السياق.

الاعتراض الرابع: ثم ناقش دلالة اللفظ من جهة اللغة والبلاغة، فقرّر أن التعبير بـ«الدخان المبين» لا يناسب القحط، ورجّح أنه من جنس عذاب الأمم السابقة، كالريح الحاصب أو يوم الظلة، واصفًا هذا العذاب بأنه غبار كثيف أسود يرتفع إلى السماء، ثم ينقلب إلى سحاب مظلم يغشى القرى تباعًا، وانتهى إلى أن هذا الوعيد كان مشروطًا بتكذيب قريش، فقال: "رابعا: أنّ تعبير القحط بـ "الدخان المبين" ليس تعبيرًا مناسبًا. فمضمون القحط موضوع مطروق[37] في الشعر العربي ... لكن لا أذكر أنّ أحد الشعراء عبّر حتى عن أشدّ قحط بـ "الدخان المبين"، ولا اختار هذا الأسلوب للتعبير عن أثره. ومن هذه الوجوه: فحتى لو صحّت رواية القحط، فليس لها تعلق بهذه الآية. قد يكون أنه وقع قحط، وقد يكون ذلك القحط صار شديدًا جدًا. وسنّة الله تعالى أيضًا أنّ أقوام الرسل في زمن بعثتهم كانوا يُبتلون بمثل هذه الابتلاءات ليتولد فيهم تنبّه وإنابة. وإشارات هذه السنة موجودة في القرآن. ومع كل هذه الاحتمالات، فهذه الآية لا يظهر أنّ لها علاقة بقحط، بحيث أنّ شدته جعلت كل إنسان يرى السماء كأنها دخان. فالتعبير بـ "الدخان المبين" لا يحوّل الذهن إلى القحط، بل يحوّله إلى عذاب "الحاصب". وأكثر عذاب نزل بالأمم السابقة من العرب بتكذيبهم الرسل هو هذا العذاب ... والصورة التي تبرز من كلام شعراء العرب ومن القرآن أيضًا تشبه كثيرًا بتعبير "الدخان المبين" [38].

ثم بيّن طبيعة هذا العذاب بقوله: "وهي تكون على هذه الهيئة: غبار أسود كعمود يرتفع إلى السماء، وفي هذا الغبار ما دام الشمس لم يختفِ تمامًا، فإن أشعته تكون ممتزجةً فيه، فيُخيَّل للناظرين أنّه قد اشتعلت نارًا في غابةً، ودخانها يرتفع إلى السماء. ثم إذا اشتدّت الريح وتوجّه هذا الطوفان إلى جهة، يظهر كأنّ سحابًا أسودا يملأ الأفق، وهو على وشك أن يمطر. ثم يتخذ هذا شكلًا مرعبًا، فيُغَطِّي القُرى تِلْوَ القُرى بِمَطَرٍ من الرِّمال والحَصَى والحِجارة" [39].

---

35 – تدبر قران، امين احسن اصلاحي، سورة الدخان، (274/7).

36 – المصدر السابق، (274/7).

37 – مستهلك موطوء ومهان.

38 – تدبر قران، امين احسن اصلاحي، سورة الدخان، (274/7–275).

39 – المصدر السابق، (275/7).

ISSN E: 2709-8273
ISSN P:2709-8265
JOURNAL OF APPLIED LINGUISTICS AND TESOL
JALT

واستشهد بقصص عاد وشعيب، وربط ذلك بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا...﴾، و﴿عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾، وهنا يظهر منهجه بوضوح: فهو يفسر "الدخان المبين" ضمن سنن العذاب القرآنية السابقة، ويرى أنه من جنس "الحاصب" أو "يوم الظلة"، أي عذاب كوني سماوي ذو هيئة دخانية–غبارية.

وانتهى إلى أن هذا التهديد كان مشروطًا، فقال: "وهذا التهديد –كما أشرنا سابقًا– كان مشروطًا بشرط، وهو أنه إذا كذّب المخالفون بالرسول فسينزل عليهم العذاب" [40]. ثم بين تحقق شرط انتفاء العذاب، يقول: "لكن معظم مشركي قريش –كما هو معلوم– دخلوا في الإسلام تدريجيًا ... فمن الواضح أنه بعدما حصل هذا التصديق لم تبقَ هناك أي سبب لظهور ذلك التهديد المشروط بالتكذيب، ولهذا حُفظت قريش –كجماعة– من عذاب الله" [41].

وخلاصة القول هو أن أمين أحسن إصلاحي لا يرى الدخان علامة مستقبلية كبرى، ولا يقبل تفسيره بالقحط، بل يفسره بوصفه تهديدًا بعذاب من جنس عذاب الأمم السابقة، لم يقع فعليًا على قريش بسبب تحقق شرط الإيمان. ونلاحظ أن منهجه قائم على قراءة تاريخية–سياقية شاملة، تستند إلى السيرة النبوية وإلى سنن العذاب القرآنية، مع تقديم هذا الإطار الكلي على الروايات التفسيرية، مما يعكس توجّهًا عقلانيًا تأويليًا يقلّص البعد الغيبي المستقبلي للنص.

ثانيًا: تفسير وحيد الدين خان للدخان: أما وحيد الدين خان، فقد تناول الدخان في سياق حديثه عن علامات الساعة، فقال في كتابه إنذار القيامة تحت عنوان: "التنبؤات الواردة في الحديث": "حسب أحد الرواية، ذكر نبي الإسلام ﷺ عشر علامات لقرب القيامة. ومن تلك العلامات ظهور الدخان ... وقد جاء في هذه الرواية التنبؤ بأن وقتًا سيأتي تمتلئ فيه أجواء الأرض كلها بالدخان" [42].

ثم صرّح بتفسيره المعاصر، قائلا: "في الزمن الحاضر تحققت هذه النبوءة وصارت واقعًا. والمقصود بها بوضوح هو ما يُسمّى اليوم التلوّث الهوائي" [43].

واعتبر تحقق هذا التلوث بعد قرون طويلة دلالة على قرب القيامة، فقال: "وهذا التلوّث الهوائي كان لا يتصوّر في زمن نبي الإسلام ﷺ، في مثل هذه الحال، صار تحقق هذه النبوءة بعد ألف وأربعمائة سنة علامة واضحة من علامات قرب القيامة" [44].

وقد أسس هذا الفهم على منهجه العام، إذ قرر أن كثيرا من روايات أشراط الساعة جاءت بلغة تمثيلية، فقال: "عن القادم وردت في كتب الحديث روايات كثيرة، وأكثر هذه الروايات جاءت بلغة تمثيلية" [45].[46]

ويستدل عليه بقوله: "وهذا ليس أمرًا مستغربًا، فقد كان هذا الأسلوب شائعًا في الأزمنة القديمة. ولهذا، فالتنبؤات الواردة في الكتاب المقدس عن خاتم النبيين (محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ) جاءت أيضًا بلغة تمثيلية. وهذا نفسه هو الأسلوب الذي استُعمل في كتب الحديث بشأن القادم الذي سيظهر في آخر الزمان" [47].

كما قرر أصلًا كليًا بقوله: "والأمر الحاسم في هذا الباب هو أن الأحداث التي ستقع في هذه الدنيا قبل القيامة لن تجيء بطريقة غامضة، بل ستظهر في صورة أسباب معلومة. وفي هذه الدنيا التي هي دار امتحان، هذه هي سنة الله تعالى، وهذه السنة لن تُلغى أبدًا لأحد" [48].

---

40 – تدبر قران، امين احسن اصلاحي، سورة الدخان، (276/7).

41 – المصدر السابق، (276/7).

42 – إنذار القيامة،(63). وهي إشاعة خاصة لجريدة الرسالة، مايو 2010.

43 – وهو كما قال وحيد الدين بعده مباشرة: " وهذا التلوّث ظاهرة من ظواهر العصر الصناعي الحديث، إذ إن هذا العصر ولأول مرة في التاريخ أوجد ما يُسمّى (انبعاثات الكربون carbon emission) ونتيجة لذلك امتلأت الأجواء بغاز ثاني أكسيد الكربون، وهو بالغ الضرر جدا على المخلوق مثل الإنسان".

44 – الرسالة، (13)، يوليو 2010.

45 – ذلك القادم.

46 – الرسالة، (13)، يوليو 2010.

47 – المصدر السابق، (13).

48 – المصدر السابق، (15).

ISSN E: 2709-8273
ISSN P:2709-8265
JOURNAL OF APPLIED LINGUISTICS AND TESOL
JALT

ومن خلال هذه النصوص يتضح أن وحيد الدين خان لا يحمل الدخان على حادثة كونية استثنائية، بل يفسره تفسيرًا علميًا معاصرًا، ويرى أن أكثر روايات أشراط الساعة ذات لغة رمزية، ينبغي فهمها في ضوء السنن الطبيعية.

ويتبين من خلال استقراء أقوال إصلاحي ووحيد الدين خان أن الاتجاه الحداثي في تفسير الدخان يقوم على ركيزتين واضحتين:

الأولى: إعادة قراءة النص في ضوء السياق التاريخي أو البلاغي، ورفض حمله على علامة مستقبلية خارقة، كما فعل إصلاحي. والثانية: تأويل النصوص الغيبية تأويلًا علميًا معاصرًا، وجعلها منطبقة على ظواهر حضارية أو بيئية، كما فعل وحيد الدين خان.

والجامع بين الاتجاهين هو رفض حمل الدخان على علامة كبرى مستقبلية ذات حقيقة كونية عامة، كما قرّره الاتجاه التراثي، واستبدال ذلك بقراءة تأويلية عقلانية تُخضع النصوص الخبرية لمقتضيات السياق أو السنن الطبيعية.

وخلاصة البحث هو أن الحداثيين قد سلكوا مسلكًا مغايرًا للعلماء التراثيين في تفسير الدخان؛ فبينما قرره التراثيون علامة كبرى مستقبلية تثبت بالنصوص وتحمل على ظاهرها، أعاد الحداثيون تأويله إما بوصفه تهديدًا تاريخيًا لم يقع، أو بصفته ظاهرة بيئية معاصرة.

ويكشف هذا التباين عن اختلافٍ أعمق في المنهج: فهو اختلاف في فهم طبيعة الغيب، وحدود الرمز والمجاز، وموقع السنن الكونية من النصوص الخبرية. ومن هنا فإن مسألة الدخان تمثل نموذجًا دالًا على الفارق بين المدرستين، وتُبرز أثر المنهج في توجيه الدلالة، قبل أن يكون الخلاف في نفس النص أو ثبوته.

فتبيّن من خلال المقارنة بين موقف النواب صديق حسن خان من جهة، وموقفي أمين أحسن إصلاحي ووحيد الدين خان من جهة أخرى، أن الخلاف في تفسير الدخان ليس خلافًا جزئيًا في فهم آية أو حديث بعينه، بل هو اختلافٌ جذري في المنهج المعرفي للتعامل مع نصوص الغيب.

فالنوّاب ينطلق من أصلٍ عقديٍّ يقوم على التسليم للنقل الصحيح، وحمل النصوص الخبرية على ظاهرها، وإثبات الدخان بوصفه علامة كبرى مستقبلية ذات حقيقة كونية عامة، مع الاعتماد المتكامل على القرآن والسنة وآثار السلف، ورفض إخضاع هذه النصوص لمعايير العقل التجريبي أو القراءة التاريخية.

في المقابل، يعمد الاتجاه الحداثي إلى إعادة تأويل النصوص الغيبية ضمن أطر عقلانية معاصرة؛ فإصلاحي يردّ الدخان إلى تهديد تاريخي بعذاب من جنس عذاب الأمم السابقة لم يقع فعليًا لتحقق شرط الإيمان، بينما يفسّره وحيد الدين خان تفسيرًا علميًا بيئيًا، جاعلًا إيّاه منطبقًا على ظاهرة التلوث الهوائي، مع تقرير أن كثيرًا من روايات أشراط الساعة جاءت بلغة رمزية تمثيلية.

والجامع بين القراءتين الحداثيتين هو تقليص البعد الغيبي الاستثنائي للعلامة، وإدراجها ضمن نظام الأسباب المألوف، سواء أكان ذلك عبر السياق التاريخي أو عبر السنن الطبيعية، بخلاف الاتجاه التراثي الذي يثبت للدخان طابعًا أخرويًا خاصًا مرتبطًا بالمرحلة المتأخرة من أشراط الساعة.

وعليه، تكشف مسألة الدخان عن نموذجٍ تطبيقي واضح لاختلاف المدرستين: فالتراثيون ينطلقون من مركزية النص وتسليم الغيب للنقل، بينما ينطلق الحداثيون من مركزية العقل والسياق والسنن الكونية. وهذا يؤكد أن جوهر الخلاف ليس في ثبوت النصوص، بل في طبيعة التعامل معها، وحدود المجاز، وموقع الغيب في البناء العقدي؛ وهو ما يجعل الدخان مثالًا دالًا على أثر المنهج في توجيه الدلالة قبل الخوض في تفاصيل الروايات نفسها.

ISSN E: 2709-8273
ISSN P:2709-8265
JOURNAL OF APPLIED LINGUISTICS AND TESOL
JALT

النتائج العقدية للدراسة

أولًا: مركزية المنهج في توجيه الدلالة قبل النص نفسه: تبيّن أن الخلاف حول الدخان ليس خلافًا في ثبوت الآيات أو الأحاديث، بل هو خلافٌ في المنهج المعرفي؛ إذ ينطلق الاتجاه التراثي – ممثَّلًا في النواب صديق حسن خان – من التسليم للنقل وحمل النصوص على ظاهرها، بينما ينطلق الاتجاه الحداثي –كما عند أمين أحسن إصلاحي ووحيد الدين خان– من إعادة قراءة النصوص في ضوء العقل والسياق والسنن الطبيعية.

ثانيًا: إثبات الغيب بالنقل مقابل إخضاعه للتأويل العقلي: قرّر الاتجاه التراثي أن قضايا الغيب، ومنها أشراط الساعة، تُتلقّى بالتسليم للنقل الصحيح دون اشتراط إدراك الكيفية، في حين عمد الاتجاه الحداثي إلى تقليص البعد الغيبي الاستثنائي، إمّا بردّ الدخان إلى تهديد تاريخي مشروط، أو بتفسيره تفسيرًا علميًا معاصرًا.

ثالثًا: الدخان بين الحقيقة الكونية والقراءة الرمزية: أثبت التراثيون الدخان بوصفه علامة كبرى مستقبلية ذات حقيقة كونية عامة، تقع قبيل قيام الساعة، بينما أعاد الحداثيون تأويله؛ فصار عند بعضهم عذابًا لم يقع، وعند آخرين ظاهرة بيئية (كالتلوث الهوائي)، وهو ما يعكس انتقال الدلالة من الإخبار الأخروي إلى التفسير الرمزي أو الواقعي المعاصر.

رابعًا: أثر تقديم الأطر الكلية على الروايات الجزئية: ظهر بوضوح أن الاتجاه الحداثي يقدّم القراءة السياقية للسيرة أو السنن الكونية على الروايات الواردة في الباب، بينما يعتمد الاتجاه التراثي على الجمع بين القرآن والسنة وآثار السلف، ويجعلها الأصل الحاكم في تقرير المسائل العقدية.

خامسًا: اختلاف تصور طبيعة السنن الإلهية في باب الغيب: يرى التراثيون أن السنن الكونية لا تمنع وقوع آيات خارقة في آخر الزمان، بينما يقرّر الحداثيون أن ما يقع قبل القيامة لا بد أن يندرج ضمن الأسباب المألوفة، وهو اختلاف جوهري في فهم علاقة الغيب بالسنن.

سادسًا: الدخان نموذج كاشف للفارق بين المدرستين: تكشف هذه المسألة أن الفارق الحقيقي بين المدرستين ليس في نصّ بعينه، بل في تصور الغيب، وحدود المجاز، ومكانة الخبر النبوي في البناء العقدي؛ فالدخان يمثّل مثالًا تطبيقيًا واضحًا على أثر المنهج في توجيه الدلالة قبل الخوض في تفاصيل الأحاديث.

التوصيات البحثية

تعميق الدراسة المنهجية المقارنة: يوصى بإجراء دراسات أوسع تقارن بين المنهج التراثي والمنهج الحداثي في قضايا الغيب، انطلاقًا من نماذج تطبيقية مثل الدخان، مع إبراز الأسس المعرفية التي تحكم قراءة النصوص عند كل اتجاه، كما يظهر بوضوح في نموذج النواب صديق حسن خان مقابل أمين أحسن إصلاحي ووحيد الدين خان.

جمع روايات الدخان دراسةً حديثية تحليلية: يوصى بإفراد بحث خاص يجمع طرق أحاديث الدخان، ويدرسها دراسة حديثية نقدية شاملة (أسانيدًا ومتونًا)، ثم يربط نتائجها بالمسار التفسيري والعقدي عند المدرستين.

تحليل أثر السنن الكونية في الخطاب الحداثي: اقتراح دراسة ترصد كيفية توظيف مفهوم "السنن الطبيعية" في القراءات الحداثية لأشراط الساعة، وبيان أثر ذلك في إعادة تشكيل التصور العقدي للآخرة وعلاماتها.

ISSN E: 2709-8273
ISSN P:2709-8265
JOURNAL OF APPLIED LINGUISTICS AND TESOL
JALT

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- الإذاعة الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة، للنواب صديق حسن خان، مكتبة الثقافة، المدينة المنورة، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، لأبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (المتوفى: 630هـ)، المحقق: علي محمد معوض – عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، سنة النشر: 1415هـ – 1994 م.
- الإصابة في تمييز الصحابة، لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: 852هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – 1415 هـ.
- الأعلام، لخير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: 1396هـ)، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر – أيار / مايو 2002 م.
- إنذار القيامة،(63). وهي إشاعة خاصة لجريدة الرسالة، مايو 2010.
- تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.
- تدبر قران، لمولانا أمين احسن اصلاحي، سورة الدخان، الإشراف: حسن ظفر، الطباعة: كيوب واي برنترز، طريق ماكلوڈ، لاهور، تاريخ النشر: نوفمبر 2009م — ذي القعدة 1430هـ، الناشر: مؤسسة فاران، الدور الثاني، عمارة مطبع علق 19–أ، طريق ايبت، لاهور، باكستان.
- تقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني (المتوفى : 852هـ)، المحقق : أبو الأشبال صغير أحمد شاغف الباكستاني، الناشر : دار العاصمة. . عدد الأجزاء :1.
- جامع البيان في تأويل القرآن، لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420 هـ – 2000 م. (تفسير الطبري).
- الرسالة مايو 2010.
- الرسالة، يوليو 2010.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة 1407 هـ – 1987 م.
- قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر،لأبي الطيب محمد صديق خان الحسيني البخاري القِنَّوجي، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1421هـ.
- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، لمسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.